

الأستاذة: ضميري عزيزة
مقياس: تاريخ الجزائر السياسي 1.
المستوى: السنة الأولى.
التخصص: جذع مشترك.

الاحتلال الأجنبي للجزائر: الاحتلال البيزنطي.

التعريف بالبيزنطيين:

أطلق العرب على سكان المملكة الرومانية الشرقية من اللاتين اسم **الروم**، في حين أن الإغريق يطلقون على هؤلاء الروم اسم **البيزنطيين**، نسبة إلى عاصمتهم التي كانت تسمى **بيزنطة**، وقد احتلت هذه المدينة القديمة موقعا استراتيجيا بين آسيا وأوروبا، إذ تقع على مضيق البوسفور الرابط بين البحر الأسود وبحر مرمرة المتصل بالبحر الأبيض المتوسط.

يرجع أصل كلمة **بيزنطة** إلى الامبراطور **قسطنطين** الذي اتخذ القسطنطينية عاصمة له، بناها على أنقاض المدينة القديمة بيزنطة التي أسسها القائد اليوناني **بيزاس** **Byzas** قائد المجموعة اليونانية التي هاجرت إلى هذا المكان في القرن السابع قبل الميلاد، وبذلك عرفت المدينة باسم هذا القائد. وعندما سيطر الرومان على بلاد الإغريق، لم يدركوا في البداية الأهمية الاستراتيجية لبيزنطة، إلى أن جاء الإمبراطور **قسطنطين** الذي اتخذها عاصمة له ونقل مقر الحكم إليها سنة 330م لتحقيق غايتين أساسيتين: دينية وسياسية.

تمثلت الغاية الدينية في اعتناق **قسطنطين** للمسيحية، وجعل المدينة مركزا ملائما لانتشارها ونموها، بينما تمثلت الغاية السياسية في مواجهة الأخطار الخارجية، خاصة خطر **الفرس** من جهة الفرات وتهديدات **القوط** من جهة نهر الدانوب، وفي ضوء ذلك أصبحت المدينة قاعدة لمراقبة تحركات الأعداء وصدّ هجماتهم، كما أضفى عليها **قسطنطين** اسمه فأطلق عليها اسم القسطنطينية، ويمكن اعتبار يوم 11 مايو سنة 332م تاريخ إعلان القسطنطينية عاصمة مسيحية للإمبراطورية الرومانية البداية الأولى لنشأة الدولة البيزنطية.

أضحت **القسطنطينية** بفعل موقعها الجغرافي المتميز مركزا أساسيا للحضارة **الهيلينية**، التي منحت الولايات الشرقية خصوصياتها وطابعها المميز، وهو ما يفسر سرعة تطور إمبراطورية الشرق عقب وفاة الإمبراطور **ثيودور** **Theodore** سنة 395م وتقسيم

الإمبراطورية الرومانية بين **أركاديوس** في الشرق و**هثوريوس** في الغرب، وهو الحدث الذي يعدّ بداية الوجود الرسمي للإمبراطورية البيزنطية.

ويعتبر المؤرخون أن تاريخ الإمبراطورية البيزنطية يمثل مرحلة جديدة من مراحل تاريخ الإمبراطورية الرومانية، ويعود ذلك إلى كون الحكام البيزنطيين كانوا يعتبرون أنفسهم أباطرة من الرومان وخلفاء شرعيين لهم، ومن هذا المنطلق، سعت الإمبراطورية البيزنطية إلى استعادة الأقاليم التي كانت خاضعة للإمبراطورية الرومانية قبل سقوطها، وهذا ما عرف بحركة الاسترداد، التي برزت بوضوح خلال عهد الإمبراطور البيزنطي **جستينيان Justinien**.

ثانياً: التدخل البيزنطي في شمال أفريقيا:

انتهت الحملة الكبرى عام 468م قبالة قرطاج بكارثة مدوية دمرت أسطول الإمبراطورية الرومانية الشرقية ومواردها المالية لسنوات عديدة، وتحت وطأة هذه النكسات اضطر **زينون Zénon**، خليفة **ليو الأول Léon I^{er}**، حوالي عام 476م، في الوقت الذي كانت فيه الإمبراطورية الرومانية الغربية تنهار تحت ضربات **أودواكر Odoacre** - إلى توقيع صلح دائم مع **جينسريك**.

ومع ذلك، رغم إبرام المعاهدة واحترامها لما يقرب من ستين عاماً، ورغم العلاقات الودية التي حافظ عليها العديد من خلفاء جينسريك مع أباطرة القسطنطينية، فإن السياسة البيزنطية لم تتخلّى عن أي من طموحاتها بل انتظرت الفرصة مواتية لإحياء مطالبها.

وقد بدأ نفوذها يتغلغل ببطء في أفريقيا خلال عهد ملك الوندال **هيلديريك Hildéric** المسالم، وهو بربريٌّ انبهر بهيبة الاسم الإمبراطوري، وحافظ على صداقة شخصية مع الإمبراطور **جستينيان Justinien**، وصلت إلى حد استبدال صورته على العملات بصورة الملك البيزنطي، ليصبح تدريجياً تابعا للإمبراطورية. ومع ذلك، لم تكن هذه التبعية، على الرغم من هشاشتها، كافية لإشباع طموحات أمير القسطنطينية الجديد، فقد كان **جستينيان** يحلم بإمبراطورية عالمية معتبرا نفسه الوريث الشرعي للعالم الروماني المنهار، الذي تشكلت من أنقاضه الممالك الجرمانية، وكان يطمح إلى إعادة بنائه بالكامل واستعادة حقوق الإمبراطورية وإحيائها مجدداً.

سعى الإمبراطور **جستينيان**، باعتباره إمبراطوراً رومانيا وأميراً كاثوليكياً، إلى إعادة المقاطعات التي كانت تحت حكم البرابرة إلى الإمبراطورية الرومانية، وكان مستاء من خضوع المسيحيين الأرثوذكس للآريوسيين ومعاناتهم، وقد طالب على الصعيد الداخلي بممارسة جميع الصلاحيات الممنوحة للأباطرة بموجب القانون الروماني، كما طمح دولياً

إلى بسط سيطرته على مختلف الأمم على غرار روما في العصور القديمة، معتبرا نفسه مُرمما لحقوق الإمبراطورية وحاميا للدين، ولم يكن ينتظر سوى ذريعة لتحقيق طموحاته الإمبراطورية، وقد انصبَّ اهتمامه بشكل خاص على أفريقيا، نظرًا لأهميتها الرمزية والإستراتيجية، ولأن الوندال كانوا يحتفظون برموز إمبراطورية منهوبة من روما، ومع اندلاع الاضطرابات الداخلية في مملكة الوندال بسبب ضعف **هيلريك** وسياساته المتساهلة وتحالفه مع بيزنطة، رأى **جستنيان** في استيلاء **جيلمار** **Gélimer** على السلطة فرصة مثالية للتدخل واستعادة أفريقيا.

سعت الدبلوماسية البيزنطية إلى المطالبة بالإفراج عن الملك المخلوع، بدعم من مختلف القوى الأفريقية، لكن **جيلمار** تعنت نظرا لإدراكه بأن أي تنازل لن يؤدي إلا إلى تأجيل الصراع الحتمي، لذلك فقد رفض كل مساومة، وردّ على مطالب الإمبراطور بمصادرة الممتلكات وإعدام خصومه وزيادة قمعهم، مما دفع الإمبراطور **جستنيان** إلى اتخاذ قرار شن الحرب على أفريقيا.

سارع **جستنيان** إلى إنهاء الحرب ضد الفرس استعدادًا لحملة عسكرية في أفريقيا معتبرًا ذلك مبررًا للتدخل العسكري في المنطقة واستعادتها، وحشد جيشه عازمًا على شن الحرب في أفريقيا، وقد عارض أعضاء المجلس الإمبراطوري حملة **جستنيان** على أفريقيا خشية أن تلقى المصير نفسه الذي لاقته حملة الإمبراطور **ليو** السابقة، التي انتهت بهزيمة على يد الوندال، مما أسفر عن خسائر فادحة وخسائر مالية كبيرة للخزينة، مؤكدين على أن الجنود لم يحصلوا على قسط كاف من الراحة بعد حرب ضارية ضد الفرس. ومع ذلك، لم تثن هذه المخاوف **جستنيان** عن قراره بإعادة بسط سيطرته على أفريقيا، إدراكًا منه لأهميتها الاستراتيجية والاقتصادية.

دارت المعركة الحاسمة في محيط مدينة تونس في شهر أوت سنة 534م، بين القائد البيزنطي **بليزار** وملك الوندال **جيلمار**، وانتهت بهزيمة قائد الوندال وفراره، غير أن البيزنطيين تمكنوا من إلقاء القبض على **جيلمار** في شهر ديسمبر سنة 534م وأخذوه أسيرا إلى القسطنطينية، وبقي هناك إلى أن توفي وفاة طبيعية، وبهذا الحدث سقطت دولة الوندال التي استمرت قرابة قرن من الزمن 431-534م.

الملاحظ، هو الغياب اللافت للدور الحاسم للقوى المحلية في الصراع بين البيزنطيين والوندال، وقد عزا بعض المؤرخين ذلك إلى المكر والخداع، بينما فسّره آخرون بدوافع سياسية وعسكرية راسخة، فقد كان حكام الممالك المحلية حريصين على توطيد سلطتهم وضمان استقلال إماراتهم وممتلكات رعاياهم، وحتى محاولات البيزنطيين استمالتهم بالهدايا السخية باءت بالفشل، واتخذت القوى المحلية موقفا محايدا في انتظار ما ستسفر عنه نتائج

الحرب، وهذا ما جعل المواجهة المباشرة بين البيزنطيين والوندال حتمية بمجرد توغل البيزنطيين في الداخل.

بعد دخول البيزنطيين شمال إفريقيا وهزيمتهم للوندال، ظنوا أن سيطرتهم على جميع الأراضي التي كانت بحوزة الرومان وتوسيع حدودهم إلى أبعد منها ستكون سهلة، غير أنهم اكتشفوا أن جميع الأراضي المتاخمة للمقاطعات من طرابلس إلى جبال الأوراس ونوميديا كانت مستقلة تخضع لحكم إمارات قوية تمارس سيطرتها على معظم الأراضي الموالية لها.

وفيما يتعلق بنظام الحكم البيزنطي في شمال إفريقيا، فقد أدخل البيزنطيون تعديلات على أسلوب الإدارة، إذ عيّنوا حكاماً مدنيين على الأقاليم الإفريقية يخضعون مباشرة للإمبراطور، وذلك على خلاف النظام الروماني السابق الذي كان يُسند الإشراف على هذه الأقاليم إلى حكام عسكريين، واستمر هذا التنظيم دون تغيير إلى غاية سنة 578م، حين اضطر البيزنطيون إلى تعيين ولاية عسكريين لمواجهة ثورات البربر. وبخصوص الجزائر، فقد قسّمها الحكام البيزنطيون إلى ثلاث مقاطعات من أصل سبع مقاطعات إدارية في إفريقيا، وهي:

- نوميديا وعاصمتها مدينة قسنطينة.
- موريتانيا السطايفية وعاصمتها مدينة سطيف.
- موريتانيا القيصرية وعاصمتها مدينة شرشال.

في مستهلّ الاحتلال، انتهج البيزنطيون سياسة تقوم على المكر السياسي واستمالة السكان في شمال إفريقيا، بهدف كسب تعاطف الأهالي وإيهامهم بأن قدومهم يهدف إلى تخليصهم من الاضطهاد الذي كانوا يعانونه في ظل حكم الوندال، غير أن هذا التقارب سرعان ما انكشف زيفه، إذ تبين للسكان المحليين أن البيزنطيين فرضوا عليهم قوانين جائرة، وتعاملوا معهم بقسوة وعنف، كما أنقلوا كاهلهم بالضرائب الباهظة، مما أدى إلى تفاقم حالة العداء بين البربر والبيزنطيين، ومن أبرز الشخصيات البربرية التي واجهت الاحتلال البيزنطي زعيم جبل الأوراس يابباس، الذي تمكن، بمساندة 40 ألف فارس من الهجوم على مدينة سيرتا (قسنطينة) والاستيلاء عليها وطرده البيزنطيين منها، كما نجح القائد نفسه في احتلال مدينة تيمقاد وتخريبها.

وخلاصة القول، واجه البيزنطيون خلال فترة سيطرتهم على شمال إفريقيا جملة من الصعوبات، تمثلت أساساً في كثرة الحروب، والنزاعات الدينية، وتمرد الجنود نتيجة حرمانهم من رواتبهم، فضلاً عن ضعف سلطة الدولة المركزية لبعدها الجغرافي عن الإقليم، وقد أسهمت هذه العوامل مجتمعة في تمكين القادة المسلمين من إنهاء الوجود البيزنطي بعد احتلال دام 113 سنة، وإقامة نظام عربي إسلامي استمر إلى يومنا هذا.